العربية

الاستاذ عبد الرحيم السايح
من مشيخة الازهر

اللغة العربية أعرق اللغات العالمية منبتا وأعزها نفرا ، سايرها التاريخ وهى مهذبة ناضجة مليئة بالقوة والحيوية .

وبفضل القرآن الكريم . صارت أبعد اللغات مدى، وأبلغها عبارة ، وأغزرها مادة ، وأقواها جلادة . وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس . تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وتصعد حتى تصل أرقى اختلاجات النفس واسعة سعة الجو ، عميقة عمق البحر ، وليس هناك فكرة من الافكار ، ولا معنى من المعانى ، ولا عاطفة من العواطف ، ولا نظرية من النظريات . عجزت اللغة العربية عن تصويرها تصويرا صادقا بارز القسمات ، حى المقاطع .

هذه اللغة شحذتها حضارة الاسلام بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية . وبعثت فى أوصالها القوة فزادتها نماء وسعة أفق ونمت فى ظل الحضارة الاسلامية نماءها الطبيعى المتطور من داخلها . وهضمت خلاياها النامية كل ماقدم لها . حتى تعملقت واتسعت وانتشرت وطوت فى دورانها القوى كل مايقف فى طريق انبعاثها وتفوقها . وكل مايعرقل انطلاقها ويثقلها عن التحليق .

قال أبو منصور الثعالبى فى مقدمة كتاب « فقه اللغة » « والعربية خير اللغات والالسنة والاقبال على تفهمها من الديانة اذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين . وسبب اصلاح المعاش والمعاد » .

وتمتاز اللغة العربية بميزات جعلتها أسلم اللغات وأقواها وأشدها وأصلحها ومن هذه الميزات التى انفردت بها : اعتدال كلماتها فان اكثر ألفاظها قد جاء على ثلاثة أحرف ، وأقل من ذلك ماجاء على أربعة أحرف . وأقل من ذلك ماجاء على خمسة أحرف . وليس فيها ماجاء على ستة أحرف . وما كان على ستة أحرف فهو مزيد وليس بأصلى فى الكلمة . وهناك ألفاظ قليلة جاءت على حرفين أو حرف واحد .

وتمتاز بفصاحة مفرداتها وجاذبية كلماتها فللانسان أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضاءة قطعا شعرية تسحر الالباب وتأخذ بالافهام. والعرب قد عنوا بألفاظها الجميلة ذات الجرس الأخاذ وذلك خدمة منهم للمعنى حتى يقع سهلا ميسرا وفى ذلك قال ابن جنى فى كتاب الخصائص (الجزء الاول) «وذلك أن العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها . وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب أخرى . وبالاسجاع التى تلتزمها وتتكلف استمرارها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها . وأفخم قدرا فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بألفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها . وطريقا الى اظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى السمع وأذهب بها فى الدلالة على القصد » .

وجاء فى موضع آخر من نفس الجزء الاول من الخصائص . « فكأن العرب انما تحلى ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعانى التى وراءها . وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان من الشعر لحكمة، وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله يعتقد هذا فى ألفاظ هؤلاء القوم التى جعلت مصائد واشراكا للقلوب . وسببا وسلما الى

تحصيل المطلوب . عرف بذلك أن الالفاظ خدم للمعانى والمخدوم لاشك أشرف من الخادم » .

وتمتاز اللغة العربية بالاعراب فى أواخر الكلم قال ابن جنى فى الخصائص « الاعراب هو الابانة عن المعانى بالالفاظ . واما لفظه فانه مصدر أعربت عن الشىء اذا اوضحت عنه وفلان معرب عما فى نفسه أى مبين له وموضح عنه . واصل هذا كله قولهم « العرب » وذلك لما يعزى اليه من الفصاحة والاعراب والبيان ومنه قولهم فى الحديث الثيب تعرب عن نفسها » .

فالاعراب فى اللغة العربية هو الابانة عن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة للكلمة وعن صلات الكلمات بعضها ببعض ومدى ارتباط ذلك .

وقد قال الدكتور عثمان أمين فى محاضرات الموسم الثقافى الثانى لجامعة الازهر « العربية لغة وضوح وجلاء والاعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية وفى اللغات الخالية من الاعراب يعتمد اهل اللغة على القرائن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعانى . ولكن الاتكال على القرائن ربما لايطرد كما يقول اليمنى صاحب (الطراز) فأوجبت لغة العرب التفريق بين الفاعل والمفعول بالاعراب والا وقع الابهام » .

وبهذا الصدد يروى أن رجلا دخل على أمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه فقال له من غير اعراب « قتل الناس عثمان » فقال له على بين الفاعل من المفعول رصن الله فاك .

فالاعراب مرتبة سامية بلغتها العربية ولا يشاركها فيها من اللغات القديمة الا اللاتينية واليونانية . ومن اللغات الحية الالمانية .

وتمتاز اللغة العربية بالايجاز والتركيز ، الايجاز فى اللفظ والتركيز فى المعنى وذلك حرصا منها على وقت السامع والمتكلم وخير الكلام ماقل ودل . قال الثعالبى فى فقه اللغة « تقدم على الكناية توسعا واقتدارا واختصارا وثقة بفهم المخاطب » .

واننا نجد ذلك كثيرا فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى « كل من عليها فان » اى على الارض وقوله تعالى « حتى توارت بالحجاب » يعنى الشمس .

وقد تستعمل العربية حرفا واحدا يدل على معان كثيرة ويعبر عن اغراض متنوعة . مثال ذلك حرف اللام . منه لام التوكيد ، ولام الاستغاثة ، ولام التعجب ، ولام الملك ، ولام السبب ، ولام التخصيص ، ولام الامر ، ولام الجزاء ولام الوقت ، وفى العربية مرونة وحس موسيقى يجعلانها لا تتردد فى أن تزيد أو تحذف حفظا للتوازن فى الكلمة . وايثارا له .

وتمتاز العربية بالحركية والقوة ليقع القول من نفس السامع الموقع القيم الذى يهىء له الحالة النفسية التى تحفزه الى العمل والحركة .

قال ابن جنى فى أول كتاب الخصائص . « ان معنى قول (ق و ل) اين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض . وتأخره عنه انما هو للخفوق والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شىء منها وهى (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق) ثم قال قول وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمذلان به وهو بضد السكوت الذى هو داعية الى السكون . ألا ترى ان الابتداء لما كان آخذا فى القول . لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا . ولما كان الانتهاء آخذا من السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا » .

ثم ان التصريف والاشتقاق يؤدى فى العربية دورا فعالا لايستهان به فى تنويع المعنى الاصلى اذ يكسبه خواص مختلفة بين مبالغة وتعدية ومطاوعة ومبادلة . ومشاركة .

قال المطران يوصف داود الموصلى « من خواص اللغة العربية وفضائلها . انها أقرب لغات الدنيا الى قواعد المنطق بحيث أن عباراتها سلسة طبيعية . يهون على الناطق الصافى الفكر أن يعبر فيها عما يريده من دون تصنع وتكلف باتباع مايدله عليه القانون الطبيعى. وهذه الخاصية ان كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية . فى وجه من الوجوه فقلما تجدها فى اللغات المسماة الهندية والجرمانية ولاسيما الافرنجية منها » .

هذه هى اللغة العربية التى فتحت صدرها لتراث الانسانية واتسعت لمقومات الامة الاسلامية التى شرقت بحضارتها وغربت ، واستطاعت بمرونتها ان تكون لغة العلم الاولى فى جميع انحاء الدنيا . فاستقت منها اوربا ينبوع العلم المتدفق . وكانت لعلماء أوربا المصدر الغنى بالعلوم والفنون من كيميائية وجيولوجية ورياضية وطبيعية وفلكية ونباتية وحيوانية وهندسية وطبية وزراعية وصيدلية وبيطرية وما اليها من مشتقات العلوم والفنون وقد ضمت معاجم العربية هذا التراث الضخم

من المفردات وجمعت الالفاظ والمصطلحات فى كل عصور تطورها . ولا يدانيها فى ذلك أى لغة من لغات العالم .

سل بها اندلسا هل قصرت
دون مضمار العلا حين اهابا
غرست فى كل ترب أعجم
فزكت أصلا كما طابت نصابا
أتت بالعمران روضا يانعا
وادعها تجر ينابيع عذابا
كل عصر دارها ان صادفت
منزلا رحبا وأهلا وجنابا

وأنقل للقارىء العربى آراء فريق من العلماء والمستشرقين والكتاب الذين يبتغون من بحوثهم ومقالاتهم مرضاة العلم فى ذاته ويقصدون بيان الحقائق التى لاسبيل الى انكارها أو الهروب منها . فلا ينحرفون الا حين تقتادهم السطحية .

قال المستشرق . ارنست رينان « من أغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القوية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل . تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها . وحسن نظام مبانيها . ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . ولا نكاد نعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التى لاتبارى . ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة » .

وقال : (ادوارد فان ديك) « اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها . والثانى من حيث استيعاب آدابها .

وقال (لسوى مسينيون) « فى حين ان اللغة السريانية قد نقلت أجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا . استطاعت لغة الضاد أن تشيد بناء فخما من الاعراب يضع أمام الابصار مشهدا فلسفيا ذا أصالة وابتكار » .

وقال : (بركلمان) « بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية هى وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلاتهم . وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الاخرى التى تنطق بها شعوب اسلامية » .

وقال ايضا « ولغة الشعر العربى قد تميزت بميزة عظيمة من الصور النحوية . وقد بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الاعراب والنحو ذروة التطور فى اللغات السامية ومعجم العربية اللغوى لايجاريه معجم فى ثرائه » .

وقال : (شينجلر) « ان اللغة العربية لعبت دورا أساسيا كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير فى خلال المرحلة التاريخية التى بدأت حين احتكر العرب ـ على حساب الرومان واليونان ـ طريق الهند » .

وقال : (فريتاغ) « ان اللغة العربية ليست أغنى لغات العالم فحسب . بل ان الذين نبغوا فى التأليف بها لايكاد يأتى عليهم العد » .

وقال : (ريتشرد) « انه لايعقل أن تحل اللغة الفرنسية او الانجليزية محل اللغة العربية وان شعبا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ولغة مرنة ذات مادة تكاد لا تفنى لا يخون ماضيه ولا ينبذ ارثه اتصل اليه بعد قرون طويلة عن آبائه واجداده » .

وقال : (ماجليوت) « ان اللغة العربية لاتزال حية حياة حقيقية وأنها احدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها (الانجليزية والاسبانية .) وهى تخالف أختيها بأن زمان حدوثها معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة . أما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ » .

فاللغة العربية باقية بقاء الدهر مدوية دوى الآذان. قوية بأهلها عزيزة بهم . ولن تنال منها تلك الدعوات المشبوهة باذن الله .

أحمد عبد الرحيم السايح
من علماء الازهر